التخلص من فضلات الآخرين

وما زلت أسمع هذه العبارات العابرة التي تخرج من أفواه لا أطيق أن أرى الوجوه التي تحويها لتبذيرهم في هذه الدنيا.

" يا رجل، عش عيلتك! الدنيا قصيرة"

هذه إحدى الجمل التي كان يتفوه بها أغلبهم، حيث كانت تسبب لي الغضب والتوتر الشديدين، يا ناس! هل أبذر نقودي في الهواء لمجرد العيش، ما شأن الناس بي؟ هل وقفت عند باب أحدهم أطلب منه كسرة خبز؟ أم تسولت أمام المساجد كل يوم جمعة؟ ما الذي يدفع أبو سالم كي يقول لي:

" يا رجل، العمر يجري، وأنت لم تلتفت لنفسك بعد!"

ما شأنهم بي؟! لم يضعون أنوفهم بين خصوصياتي كي يستنشقوها بعنف، أنا حر أريد أن أعيش كما أريد، أبيع الحياة أم أشتريها تجارة تتعلق بي وحدي، فلا داع للتدخل، وويل لهذه المشاعر الكريمة التي تنتابني من وراء كلماتهم على حين غفلة والتي تجعلني أشعر أحيانا - ولا أقول إلا أحيانا – أجد فيها شيئا من الصراحة ، لكن في نهاية الأمر أقتنع بأفكاري أنا فحسب، فطالما أن حاجياتي ما تزال صالحة للاستعمال فلا يوجد أي مبرر لإتلافها حتى لو كانت متآكلة من شدة الاستخدام أو رديئة المواصفات.

حذائي كان السبب الرئيسي وراء إطلاق عباراتهم النارية طلقة تلو طلقة من بنادق أفواههم، والتي جعلت لسان كل واحد منهم يزداد مترا، والذي ليس له لسان أصبح لديه لسانان! عالم عجيب، كلهم يقولون أنني أملك المال الوفير ولا أجرؤ على شراء حذاء جديد بل يتعجبون ويقولون:

" لو اشترى هذا البخيل حذاء سيكون له وحده فحسب، ولن يكون لغيره كي لا يشتريه، أبيخل على نفسه أيضاً"

خلاصة أقوالهم أنني أصبحت بخيلا، هل يعقل أن أكون بخيل لأني لا أريد أن أبذر نقودي وأجعلها تمشي على الأرض بدلا أن تحظى بالدفء داخل جيبي! فأجبتهم وأنا أغادر صفوفهم ضاحكا"

" طبعا إن قررت شراء حذاء فسأشتريه لنفسي، يعني ما أسعدني إن اشتريت لغيري أحذية"

تفاءل جميعهم بإجابتي وظنوا أنني عزمت على شراء حذاء جديد بدلا من حذائي المهترئ، لكن إن بعد الظن إثم يا أصيحاب، فأردفت حديثي بتهكم

" لكن لا تفرحوا، لن أشتري الحذاء!"

غادرتهم ولا أدري إن كانوا قد شتموني أم لا، لكن لا يهمني ما دمت سأحصل على حسناتهم ما داموا يغتابوني، والجميل في الموضوع أنني سأحصل على الحسنات دون أن أضطر أن أنفق نقودي في صدقة أو تبرع كما يفعل بعض المبذرين! ومع كل هذا المنطق يتهمونني بالبخل... ألم أقل لكم عالم عجيب؟!

عدت بيتي واستقبلتني زوجتي وهي تبكي، سألتها بتعجب " ما بك؟!" فهي لم تبك منذ فترة طويلة وما زالت تنفذ كلامي في عدم البكاء، حيث أنني أخشى أن يصيبها المرض من كثرة البكاء فاضطر أن أبعثها للطبيب، فقالت لي:

" لقد جاءتني جارتي بثمن حذاء كي أشتريه لك، لقد جرحت مشاعري هذه الحمقاء، هل تحسبني متسولة"

لم أتمالك نفسي من الغضب، فلم تضيع زوجتي مثل هذه الغنيمة كان من المفترض أن تأخذ النقود ونعاقب جارتنا ولا نشتري الحذاء، لكنني عاقبت زوجتي بدلا منها وأرسلتها لأبيها في إجازة مفتوحة لأنها لم تحسن التصرف، فليت الجارة قد جرحت رقبتها بدلا من مشاعرها، وهل أطعمتنا المشاعر الخبز في يوم من الأيام، وبذا سأكون وفرت طعام زوجتي لفترة لا بأس بها!

طاف حولي هاجس ما كي أشتري حذاء جديدا، فأصابعي قد خرجت من حذائي هذا وأصبحت شبه حاف، والأشواك بدأت تدميها،

فتحسست نقودي بألم وقررت التخلص من حديث الناس بشراء حذاء جديد، دخلت السوق ووقفت أمام محل الأحذية لكن الرجل لم يرحب بي كزبون كما تجري العادة، بل أبعدني من أمام المحل معتقدا أنني متسول، فشتمته بحرارة لأنه يظن كثيرا، ألا يعلم أن بعد الظن إثم؟!

واسيت نفسي وقررت أن أذهب للباعة المتجولين فبضاعتهم رخيصة بالتأكيد، فوقفت أمام عربة أحدهم وتصفحت أحد الأحذية باهتمام وبمبالغة شديدة، للحق كان حذاء جميلا، فسألته عن ثمنه، فأجابني

- خمسة دنانير.

صرخت في وجهه بعنف وقلت له بتهكم:

- تبا لك، ولم كل هذا الغلاء؟!

- بالعكس، إنه رخيص، ربما لو ذهبت للمحلات المجاورة ستجدهم يبيعونه بضعف ثمنه.

- ضعف ثمنه! وهل أنا مجنون كي أضع عشرة دنانير في قدمي، أتدري أنني لا أضع هذا السعر في رؤوس كبيرة تقول مالا تفعل.

- أنت حر. إن شئت اشتر، وإن لم تشأ فارقنا برائحة طيبة.

كلا والله لن أشتري حذاء جديدا، سأبقي حذائي حتى لو كان متآكلا، سأبقيه مهما أكلت السنوات المبذرة منه، مهما جعلته قديما مهترئاً، سأبقى أمشي به حتى لو أكل الشوك أصابع قدمي، فأصابعي أصلا منظرها غير جميل، وزوجتي كانت تتهمني بالقذارة حينما أحتال عليها كي تنظف قدمي، لكن لا بأس ما دامت ثقتي بنفسي عالية، ولا بأس إن سبب هذا الحديث مصدر القلق عند أهل الحي وبات محور حديثهم، فكل ما يهمني الآن إغاظتهم لأنهم قد أغاظوني أولاً، والبادئ أظلم!

قررت أن أمشي في الشارع بكل تباهي بحذائي البالي، أعلم أنها مشية اختيال يبغضها الله، لكنني مضطر لفعل ذلك لعلي أتمكن من تعكير مزاج المبذرين، فسأصلي لاحقا لربي كي يسامحني،

سأمشي من أمام بيت أبي سالم بالذات، وسأقف أمام بابه مباشرة لأنتزع الشوك من أصبع قدمي على مهل، ولينادي بعد ذلك بالبخيل كيفما شاء، كما أنني سأتظاهر بالعرج لأمشي ببطء أكثر، سأمر أمام بيت كل واحد من هؤلاء المبذرين سأجعلهم يكرهون مسكنهم، وإن استطعت سأجعلهم يرحلون إلى حي آخر، وليبقى فقط الذين يفهمون بعلم الاقتصاد أمثالي!

مررت أمام بيت أبي عدي، ووجدت عدي يجلس على العتبة حزينا، فقد أنزل رأسه على الأرض من حزنه، فوقفت أمامه مباشرة كي أسأله عما به، وحينما وقع بصره على حذائي قال لي دون أن يرفع رأسه أو أن يتصفح وجهي.

" أهلا جارنا أبا كريم، هل تريد أبي"

قال جملته ورأسه ما يزال في الأرض، لقد عرفني اللعين قبل أن ينظر لوجهي بالفعل أنه ذكي، لا أدري صراحة كيف عرفني ، فربما أن الحزن يجلب الذكاء! تركته في شأنه وتوجهت إلى المسجد كي أصلي العصر، وحرصت أن أضع حذائي على أعلى رف من رفوف خزانة الأحذية خشية أن يسرق فربما أن حذائي سيصبح عما قريب من التراث، وسيوضع بصندوق زجاجي في أحد المتاحف العالمية! فأحقق حلمي وأصير مليونيرا.

فرغت من صلاتي، وهممت الخروج من المسجد، فكانت الصدمة، "أين حذائي؟! "صرخت في الناس بأعلى صوتي والملايين تتدفق في عيني " أين حذائي، يا ناس لقد سرق حذائي" نظر لي جميع المصلين باستغراب في بداية الأمر، لكنهم أصبحوا الآن يتضاحكون فيما بينهم، وقال لي أحدهم بسخرية:

" وأي حذاء هذا الذي يجعلك تندب وتصرخ كالثكلى؟!"

صرخت في وجهه والجدية تتمالكني

" ربما أن أحدهم قد فكر بما فكرت به قبل الصلاة، وأدرك القيمة الأثرية لحذائي وذهب به لأحد المتاحف"

لم يتمالك الناس أنفسهم من هول الضحك، حتى أن بعضهم استند على الحائط من شدة الضحك، فبدا منظري مضحكا للغاية، فشعرت أنني مهرج، فقال لي أبو عدي محاولا أن يواسيني ويقنع تفكيري الطماع

" ربما أن حذاءك يحتاج لألف عام أو أكثر كي يعتبروه أثريا، وأنت لم تعش سوى أربعين عاما"

نظرت مليا في نفسي، وحاولت أن أختصر الموقف فلملمت نفسي ونويت الخروج من المسجد حافيا لولا أن أوقفني أبو سالم بحديثه اللئيم

" من ذا الذي سيسرق حذاءك المهترئ أصلا، ربما أن اللص سيحزن على صاحبه حينما يراه"

عدت أدراجي ووبخت أبا سالم على حديثه الذي يتقصد إهانتي فيه، لكني توقفت فجأة حينما نظرت حولي فوجدت المصلين قد غادروا ولم يبق إلا أنا وأبو سالم، ووجدت في خزانة الأحذية حذاءين أحدهما لأبي سالم والآخر جديد وهيئته أنه لم يلبس بعد، نظرت إلى أبي سالم بوجوم وحاولت أن أسأله لكنه قد سبقني الحديث وقال لي بثقة:

- أما تزال تفكر في صاحب الحذاء الجديد، ألم تفهم بعد؟! لقد قام أحدهم بتبديل حذائك بهذا الحديث الجديد، فربما أن نفسه لم تتحمل أن يرى ذلك الحذاء القذر في خزانة الأحذية في كل صلاة!"

خرج أبو سالم ودخل العجب لقلبي، فقد أيقنت أن حذائي لم يسرق، فقد صدق أبو سالم القول "من سيسرق حذائي أصلاً"، على العموم أسأل الله أن يجزي الذي أبدل حذائي القديم بهذا الحذاء الجديد كل خير، لكن بصراحة ما زال الشك يقتحم قلبي، فما الذي يجعل غيري يستبدل حذائي بحذاء آخر، ألا يعقل أن له مصلحة في ذلك، وبقيت أفكر في تلك المصلحة حتى مررت بجانب أقرب حاوية للمسجد، لمحت حذائي القديم بجانبها، فاستولى الغضب على كياني، ألهذا الحد باتت فضلات الآخرين تضايق الناس لدرجة أن يدفعوا

نقودهم في سبيل التخلص منها ، لكن لن أهتم كثيرا ما دمت حصلت على حذاء جديد دون أي مقابل، وهذا أهم ما في الموضوع أنني لم أدفع أي فلس لإحضار حذاء جديد، لذا أمسكت حذائي القديم بيد وألقيته في الحاوية وأنا أضع يدي الأخرى على أنفي متذمرا من رائحة حذائي النتنة.

النهاية